تثقيف الطفل العربى جمالياً لمواجهة التحديات العالمية المعاصرة

(العولمة الثقافية . الحداثة . ما بعد الحداثة)

إعداد :

أنصار محمد عوض الله رفاعى

مدرس بكلية التربية الفنية . جامعة حلوان -

تخصص أصول تربية فنية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إن تنصـــروا الله ينصـــركم ويثـــبت أقـــدامكم ﴾

صدق الله العظيم

تحية إلى الأطفال فى جميع أنحاء العالم.

تحية إلى الأطفال الذين يرزحون تحت نيران الحقد الأعمى والإرهاب الدولى.

تحيـة إلى الأطفال فى فلسطين والعـراق والسودان وجنوب إفـريقيا وأفـغانسـتان والشيشان والبوسنة وكابول والفلبين والهند.

وتحيـة خاصة إلى أطفـال الانتفـاضة فى فلسطين المحتلـة أجيال وراء أجـيال منذ ١٩٤٨ وحتى ٢٠٠٤ .

﴿ ألا إن نصر الله قريب﴾

صدق الله العظيم

تثقيف الطفل العربى جمالياً لمواجهة التحديات العالمية المعاصرة

(العولمة الثقافية . الحداثة . ما بعد الحداثة)

مقدمة:

تعانى الثقافة العربية بشكل عام أزمات عديدة ومتشعبة فى عصر الهيمنة والهزائم السياسية والضعف العربى العام والأحداث الحزينة المؤسفة فى بعض الأقطار العربية فى ظل كل هذا تتآكل الثقافة العربية، بعد أن ظلت لفترة طويلة ثابتة راكدة غير متطورة وغير متنوعة.

وقضية تآكل الثقافة العربية وانزوائها قضية ذات بعد حضارى يجب الاهتمام به والتنبيه إلى خطورة إهماله، فهى قضية من أهم القضايا التى يجب التصدى لها والوعى بأسبابها والوقوف على الآثار الناتجة عنها.

والوقوف عند حدود الوعى بالمشكلة لا يمثل حلاً جذرياً ولكنه يمثل خطوة على طريق وضع الحلول خاصة فى ظل مرورنا بمرحلة انتقالية جديدة من التحديات العالمية المعاصرة التى يسبق فيها العلم والتكنولوجيا الثقافة والفكر بقفزات شديدة الاتساع تسهم فيها استعارة الأنماط الثقافية الغربية الوافدة أو فرضها من خلال المد الثقافى الغربى الطاغى والمهيمن والذى أوجد مناخاً ثقافياً تغريبياً لا يسمح ولا يعطى الفرصة حتى للنظر فى الثقافة الخاصة، وفرض ذلك التحول الهائل لقيم العولمة الثقافية من خلال وسائل الهيمنة الثقافية الإعلامية الشرسة والحادة المصدرة إلينا وإلى جميع أنحاء العالم من خلال الثورة المعلوماتية والتقنية والاتصالية العارمة المتمثلة فى القنوات الفضائية وقاعات الانترنت التى تبث الرذائل وتنفث سمومها فى وجدان براعم الأمة وعقولها.

فى ظل هذه الظروف الحرجة العصيبة التى تجتاح الأمة العربية والإسلامية والتى يتزامن معها الحرب على الإسلام كأهم وأول مكون من مكونات الذاتية الثقافية للأمة وأهم عامل من عوامل العزة والكرامة التى نحن فى أمس الحاجة إليها، فالإسلام حضارة وعطاء ازدهر فى القرون الوسطى المظلمة فى أوروبا حينذاك واستفادت الحضارة الغربية من منجزات الإسلام الحضارية والعلمية ما بنت عليه نهضتها المعاصرة، والآن تلصق تهم الإرهاب بالإسلام، كأهم محاولة من محاولات التغريب والانسلاخ عن الهوية الذاتية، مما يؤثر على المجتمع العربى عامة والطفل العربى خاصة الذى ينشأ منبهراً بالآخر على اعتبار أنه نموذج التقدم الوحيد فى العالم فهو لم يتكون لديه وعى بثقافته التى لم تقدم إليه التقديم اللائق الذى يجعله معتزاً بها فخوراً بمنجزاتها الحضارية يعمل على تفعيلها المعاصر، إن جيل الأطفال الذى يحيا فى ظل العولمة الثقافية ينشأ جيلاً متنصلاً من جذوره وأصوله الثقافية التى لم يتعلم الوعى بها ويتدرب على رؤيتها بصرياً والتعبير عنها جمالياً.

لقد فقد الطفل العربى المعاصر براءته وطفولته والتوازن الروحى والوجدانى الذى يقيه من العواصف، وفقد الفكر الذى يدعم ثقافته الإسلامية ويقويها ويجعله يدرك صدق غاياتها ونبل أهدافها ورفعة معانيها ويعصمه من تداعيات التغريب وما ينتج عنها من نشر العنف والرذيلة والمخدرات كما افتقد الثقة والإيمان والاعتزاز بثقافته الذاتية وتميزها الحضارى مما يمثل مناعة ثقافية تنأى بفكره وثقافته عن الانغماس والذوبان أمام تيارات الحداثة وما بعد الحداثة المدمرة للإبداع الأصيل والحاجة لأصالة الفكر معاً والمدمرة أيضاً لجوانب شخصية الطفل العربى الروحية والأخلاقية والتربوية وهذا هو جوهر الخلل فى المنهج المادى الغربى الذى يعتمد على التجربة المحسوسة ولا يؤمن بالروحانيات حيث الاهتمام بكل ما هو محسوس وملموس فقط كمعيار معرفى أحادى الجانب.

خلفية البحث:

إن أزمة ثقافة الطفل الناتجة عن الانفتاح غير المقنن وغير المنضبط على الغرب تظهر فى حالة الاضطراب الفكرى لدى الطفل وعدم الوعى لديه بالنموذج الثقافى

المعرفى النابع من ثقافته والذى يؤهله للاستخلاف فى الأرض ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾(١). والوسطية ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾(٢) . بهدف الشهادة على الأمم السابقة واللاحقة مما يجعل من الواجب علينا تكريس الوعى الثقافى لدى الطفل لتنمية اعتزازه بدينه وتراثه وتاريخه ومسئوليته تجاه ثقافته والحفاظ عليها باعتبارها نموذجاً معرفياً متكاملاً يمثل الأساس الذى يبنى عليه نموذجه الحضارى المعاصر، خاصة فى ظل الظروف العالمية السائدة والتى يُعلن من خلالها افتراءً أن الإسلام كدين وفكر هو مرادف للإرهاب مما يزعزع ثقة الأطفال بدينهم وثقافتهم الإسلامية خاصة فى ظل غياب الوعى الحضارى اللائق بها وتفعيلها فى الواقع المعاصر وبيان أن الإسلام هو دين التسامح ودين الله الذى ينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى هو دين التفاعل الإيجابى بين البشر: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(٣). قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:«لا فضل لعربى على أعجمى ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى والعمل الصالح».

فلم يتم التمييز العنصرى بين البشر فى الإسلام كما هو حادث فى الحضارة المعاصرة بل حث الإسلام على التعارف والتوافق والانسجام بين الشعوب والقبائل رغم اختلافها وتنوعها ومعيار التفضيل هو التقوى والعمل الصالح، وليس امتلاك القوة النووية أو الأسلحة البيولوجية فالبقاء للأتقى وليس البقاء للأقوى بمنطق الفكر العالمى المعاصر.

وعند الحديث عن الثقافة الجمالية والإنسانية فى الإسلام التى أنتجت الفنون الإسلامية الأصيلة والعالمية والتى تمثل أحد الروافد الجمالية الهامة التى تسهم فى تثقيف الطفل العربى جمالياً وتعريفه بتراثه الجمالى والبحث فيه عن مقومات النهضة المعاصرة وتأكيد الهوية كأول محور من محاور الانتماء لديه، والتى يتم تغذيتها من

(١) سورة البقرة: الآية (٣٠) .

(٢) سورة البقرة: الآية (١٤٣) .

(٢) سورة الحجرات: الآية (١٣) .

خلال اتخاذ التراث الفنى الإسلامى كمدخل للرؤية البصرية والتثقيف الجمالى لدى الطفل، حيث تتعمق رؤيته البصرية وتعبيره الفنى من خلال إدراكه لجماليات الفنون الإسلامية، وممارساته الفنية للتعبير عنها، مما يرسخ بداخله القدرة على الرؤية الجمالية وتثقيف العين، مما يؤصل لديه الرقى المعرفى والثقافى والتذوقى الجمالى، كما يؤسس تصورات للنهضة الإبداعية للأمة العربية فى المستقبل، وأهمية تكوين الوعى لدى الطفل بذلك منذ الطفولة.

مشكلة البحث:

تتضاءل ثقافة الطفل العربى فى العصر الحالى وتتقلص أمام الثقافات الوافدة، مما يؤثر سلبياً على بناء وتكوين شخصية الطفل وأخلاقياته خاصة فى ظل غياب الوعى الثقافى والوعى الجمالى بالتراث والثقافة المحلية الأصيلة، وفى ظل طغيان الثقافة الفنية الغربية وتداعياتها الغريبة المفرطة فى الخيال والعبث والعنف اللاأخلاقى والخرافة البعيدة كل البعد عن تنمية الإبداع الخلاق، والتى تستبطن بداخلها أصول وخلفيات فكرية بعيدة كل البعد عن أخلاقياتنا وقيمنا وأصولنا الثقافية، كما تهدف إلى الهيمنة العالمية، وتكرس لمحو الهوية الوطنية والثقافة الدينية لدى الطفل، كما تسهم بكلٍ مكوناتها فى تشويه الجانب السلوكى والتربوى لدى الطفل من خلال العنف المصدّر ومن خلال نشر ثقافة فاسدة موغلة فى الإثارة والميوعة والاستهتار بالقيم الأخلاقية والقيم الجمالية الأصيلة مما يؤدى إلى ذوبان شخصية الطفل، وعدم ثقته بنفسه والانبهار بالآخر، وشعوره بالدونية، كما تنمى لديه عدم الثقة فى قدراته وشعوره بالعجز والإحباط والتوتر بالإضافة إلى العنف الذى أصبح الآن من أهم الظواهر السائدة بين أطفالنا فى المدارس وفى مجتمعاتنا وفى ظل هذا الطوفان الجارف يصبح من الواجب الحضارى والأمانة الحفاظ على هوية الطفل العربى من خلال تأصيل ثقافته ومحاولة وضع الحلول للإسهام فى هذا التأصيل لتنشئة الطفل العربى تنشأة جمالية.. ثقافية واعية لينشأ كفرد مثقف واعٍ نافع لوطنه.. مبدع من خلال تعبيره الفنى قادر على الإحساس بمشكلاته ومشكلات وطنه وقادر على وضع الحلول المبدعة لها، مواكباً للتطورات العصرية التكنولوجية معتزاً بثقافته وتراثه ودينه خاصة فى ظل التشويه والتحريف الظالم الحادث الآن.

هذا بالإضافة إلى أهمية تكوين الوعى لديه أيضاً بما يدور حوله فى العالم من أيديولوجيات فكرية تصدر إليه تحمل مسميات براقة توحى بالتحديث والتجديد بينما تستبطن بداخلها أفكاراً سامة هدامة تستهدف تخريب عقول الأطفال ومحو بذور الخير، وإحلال بذور الشر والهيمنة والعنف والجريمة تلك الثقافة العالمية الوافدة التى تستهدف محو هوية الأطفال وثقافاتهم وتقويض القيم التربوية والأخلاقية القائمة عليها، ونشر الرذائل تحت مسمى حقوق الطفل فى (وثيقة المرأة والطفل) حيث ينص أحد بنودها على " إطلاق الحرية الجنسية للأطفال وعدم تدخل الكبار، وحق الإجهاض للمراهقات !!".

ومن خلال ما سبق يتم التساؤل التالى:

كيف يمكن تثقيف الطفل العربى جمالياً لمواجهة التحديات العالمية المعاصرة والمتمثلة فى العولمة الثقافية وأيديولوجيات ما بعد الحداثة كالمادية والعبثية وهدم التراث ونفى الإيمان والأديان والإلحاد والشذوذ تحت مسميات ما بعد الحداثة كمصطلح جذاب يوحى بالحديث والجديد والمعاصر.

وحتى تتم الإجابة على هذا السؤال فإن الباحثة تفترض الفروض الآتية:

فروض البحث:

١. يمكن تثقيف الطفل العربى جمالياً من خلال التذوق الجمالى للتراث الفنى الإسلامى ، حيث يصبح مصدراً هاماً من مصادر التعبير الفنى لدى الطفل.

٢. من الممكن إحداث توازن ثقافى لدى الطفل لمواجهة تحديات العولمة الثقافية، ومفاهيم ما بعد الحداثة من خلال توظيف الطاقة الإبداعية الخلاقة عند الطفل من خلال تراثه الفنى والثقافى.

الإطار النظرى:

إن تكوين الوعى لدى الطفل بثقافته ومكوناتها الجمالية والأخلاقية بشكل مبسط يتناسب والمرحلة العمرية التى يمر بها هو أساس المواجهة لتحصين ذاته عندما ينشأ فى وسط هذا السيل العارم من الثقافات الوافدة وتداعياتها الأخلاقية الهدامة.

أهمية تكوين الوعى لدى الطفل فى ثلاثة اتجاهات:

١. الوعى بصميم ثقافته العربية الإسلامية ورصيدها المتراكم عبر العصور والبحث فى كل أبعادها الدينية والأخلاقية والجمالية والفنية والاجتماعية كروافد ثقافية ومنابع يمكن أن تمده بالجديد مع أهمية عدم الاقتصار على معرفة ذاته الثقافية والجمالية فقط بل محاولة اكتشاف هذه الذات بما يجدد معرفته المعاصرة.

٢. الوعى أيضاً بالفكر الوافد وأهمية انتقاء ما يتخذ منه وأهمية توعية الطفل بأن ليس كل ما هو وافد شر مستطير، بل هناك إنجازات علمية وتكنولوجية يجب الأخذ بها والاستفادة من التقدم العلمى والتكنولوجى المرتبط بها ، وليس شرطاً أساسياً للتقدم نقل الفلسفة والفكر والفن وأنماط السلوك الأخلاقية المرتبطة بها. مما يؤصل لدى الطفل النقد الذاتى والانتقاء والغربلة والبحث عن الأصيل فى الفكر والفن.

٣. فى مجال التثقيف الجمالى والرؤية البصرية الفنية لابد أن يعى الطفل جيداً أن سبيل تقدمه وتقدم أمته ليس هو التقليد الكامل للنموذج الغربى المصدَّر، وأيضاً ليس هو التقليد الكامل لتراثه الجمالى السابق، بل إنشاء صلة إبداعية بين حاضره وتراثه الجمالى، ويدرك جيدا أنه لابد أن ينتج مزيجاً إبداعياً من خلال الاستيعاب والتجديد لمستقبل أكثر أصالة وجمال مما يؤصل المسئولية الإبداعية لديه عندما يدرك أنه أمل المستقبل بالنسبة لأمته.

وعند الحديث عن تثقيف الطفل العربى يجب الاهتمام بتفسير المفاهيم والبحث عن التعريفات الأصيلة (لمفهوم الثقافة) النابع من البيئة العربية والفكر العربى الإسلامى الرائد وعدم الاقتصار على التعريفات المستوردة التى أفرزها الفكر الغربى والسائدة فى أغلب المراجع العربية والمعاصرة.

المعانى العربية لمفهوم الثقافة:

جاء فى القرآن الكريم﴿ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ (١) أى حيث وجدتموهم ، وهى بمعنى الظفر بالشىء والفوز به وإيجاده بعد بحث وتنقيب.

وقد عرف ابن خلدون المفكر العربى ورائد علم الاجتماع الثقافة فى القرن

(١) سورة البقرة: الآية (١٩١) .

الرابع عشر الهجرى بأنها : «العلوم والصنايع، وقد امتد تعريفه إلى البيئة الاجتماعية، وإعمار الدولة (١).

فالعلوم تشمل المعارف والعلوم بشكل عام سواء المعارف والعلوم الأدبية أم العلمية، والصنائع تشمل التطبيقات العملية كالعمارة والفنون والخط والهندسة والصناعة وكل ما هو مصنوع وعملى وتطبيقى.

يذكر المعجم الوسيط مفهوم الثقافة من خلال الأصل اللغوى (ثَقفَ أى هذب)(٢).

أما فى لسان العرب فمفهوم الثقافة يأتى من الفعل (ثقف) أى حذق ومهارة وفهم وضبط ما يحويه وقام به أو ظفر به.

أيضاً (ثقف) بمعنى فضِنْ ذكى ثابت المعرفة بما يحتاج إليه(٣).

كذلك (ثقف) بمعنى تهذيب وتشذيب وتقويم وتسويه من بعد اعوجاج(٤).

معانى ودلالات الثقافة فى أصلها العربى:

١. يذكر نصر محمد عارف أن مضمون (الثقافة) فى اللغة العربية ينبع من الذات الإنسانية ولا يغرس فيها من الخارج، وهى تعنى تنقية الفطرة وتشذيبها وتقويم اعوجاجها، وإطلاق طاقاتها لتنشىء المعارف التى يحتاج إليها الإنسان(٥).

٢ـ كما أنها تعنى الدقة والمهارة والفهم والضبط لكل عمل يقوم به الإنسان، أو علم يظفر به بعد بحث وتنقيب، وتهذيب ذلك العلم وتقويمه بمعنى انتقاء المعارف والأفكار والصنائع الصالحة والنافعة لإقامة الحضارة، وليس استيراد معارف وأفكار تفسد القيم لدى النشء ولا تتوافق مع إطلاق الإبداعات والطاقات

(١) عبد الرحمن بن خلدون: عبد الرحمن بن خلدون: مقدمة ابن خلدون .

(٢)مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، الجزء الأول، القاهرة، ص ٩٨.

(٣) ابن منظور: لسان العرب، الجزء العاشر، مادة ثقف.

٤٠٤(٤) القاموس للحيط، الجزء الثالث، مادة ثقف.

(٥) نصر محمد عارف: الحضارة. الثقافة. المدنية، دراسة لسيرة المصطلح ودلالة المفهوم، المعهد العالمى للفكر الإسلامى ـ ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م، ص ٣١

الكامنة، وذلك عكس المفهوم الغربى الذى يعرف الثقافة بأنها كل المعارف والعادات والملابس والقانون وكل ما يكتسبه الإنسان من البيئة.

كما أن الثقافة بمفهومها العربى تختلف عن مفهومها الغربى الذى يعنى الزرع والغرس والفرض والتنمية " حيث يرتبط مفهوم الثقافة بالنمط المجتمعى الذى يعيش الإنسان فى ظله، وليس بأى مقياس آخر يقسم الثقافات قياساً على ثقافة معينة مثل مفهوم culture القائم على الغرس والفرض والمعيارية فى التعامل مع الثقافات الأخرى، فوظيفة المثقف العربى أن يكون مرتبطاً بمجتمعه وقضاياه بغض النظر عن كم المعارف والمعلومات المكدسة فى ذهنه والتى قد تكون أفكاراً ميتة أو مميتة»[١].

وذلك عكس مفاهيم الثقافة الغربية التى تهتم بالغرس والفرض للأنماط الثقافية الخاصة بها بهدف تغيير العالم فكرياً، فالغرب يمارس فكرياً النظرة الفوقية للجنس الأبيض الذى يؤمن بتفوقه على جميع الأجناس.

يقول حسن حنفى : « إن هناك مركزية دفينة فى الوعى الغربى تقوم على عنصرية عرقية والرغبة فى الهيمنة والسيطرة، فالأبيض أفضل من الأسود والأصفر والأحمر والأسمر فقد استؤصل الهنود الحمر من أمريكا واستراليا، وسرق الأفارقة السود فى بداية عصور الحداثة صيداً كالحيوانات لبناء القارة الجديدة، وتم احتلال العالم العربى الإسلامى الأسمر، وألقيت أول قنبلة نووية على الجنس الأصفر فى هيروشيما وناجازاكى»[٢].

معانى ودلالات كلمة ثقافة فى المفهوم الغربى:

«ترجع كلمة Culture إلى اللفظ اللاتينى Culture الذى يعنى حرث الأرض وزراعتها»[٣] وقد استمر هذا المعنى متعارف عليه فى العصرين اليونانى والرومانى

(١) نصر محمد عارف، المرجع السابق، ص ٣٢.

(٢) حسن حنفى: الثقافة العربية بين العولمة والخصوصية، المحيط الثقافى، العدد ٨، يونيو ٤ , , ٢، ص٤٢.

(٣) Wiener, Philips: Dictionary of the Ideas, New York, Scribmer_s Sons 1973, P. 613.

حيث استخدمها (شيشرون) مجازاً بالدلالات نفسها حيث أطلق على الفلسفة (Mentis Culture)أي زراعة العقل وتنميته»[١].

أما تايلور عالم الانثروبولجى الإنجليزى فيعرف الثقافة : « بأنها ذلك الكل المركب الذى يتضمن المعرفة والعقائد والفن والأخلاق والقانون والعرف وكل القدرات والعادات التى يكتسبها الإنسان من حيث هو عضو فى مجتمع. [٢]

مفاهيم الحداثة:

يعرفها بودريار بقوله: « تقوم الحداثة على المعرفة الفكرية والعقلية والعلمية فقط كما تعتمد على لغة تحليلية، وأنظمة ديموقراطية وتراكيب اجتماعية طبقية »[٣].

أما محمد سبيلة فيذكر:« تعبر الحداثة عن نفسها بتمجيد الذاتية العميقة والأهواء والتفرد والمعيار الذاتى، وما هو عابر، وما لا يمكن إدراكه، كما تعبر عن نفسها بتحطيم القواعد، وإبراز الشخصية الذاتية الواعية بنفسها أولاً »[٤].

مما سبق يتضح التركيز على الجوانب الفكرية والعقلية وإهمال الجوانب الروحية والوجدانية لأنها غير معترف بها فى الفكر الحداثى، واعتبار المعايير ذاتية فلا توجد قيم أخلاقية أو فنية ثابتة بل متغيرة بتغير الأهواء والأشخاص وتحطيم القواعد يشمل تحطيم التراث والدين والفكر والفن وكل ما سبق وكل الماضى والبدء من نقطة الصفر فى الواقع المعاصر.

«وقد أثار موضوع الحداثة فى الفكر العربى الحديث جدلاً شديداً بين أنصارها وخصومها فأنصارها يذهبون إلى أنها التى تقف وراء التقدم الحضارى والسياسى والاجتماعى والعلمى الذى شهده الغرب ومن هنا لابد من تطبيقها، أما خصوم الحداثة فيرون أنها فى كثير من ممارساتها مضادة للقيم التراثية ما دام النموذج الإسلامى قائماً ويمكن تحديثه وإحياؤه»[٥].

---

(١) معن زيادة: معالم على تحديث الفكر العربى، عالم المعرفة، الكويت،العدد رقم ١١٥، ١٩٨٧، ص٧

(٢) E. Tylor: Primitive Culture , New York, Brentano_s , 1924, P. 1.

(٣) هشام شرابى: المجتمع التقليدى والحداثة، مجلة الأزمنة، باريس، ١٩٩٦، ص ٩١

(٤)محمد سبيلة: الحداثة، دفاتر فلسفية، دار طوبقال للنشر، الرباط، ١٩٩٦، ص ١٧٢

(٥) السيد يس: العالمية والعولمة، دار نهضة مصر، ط ٢، فبراير ١ , , ٢، ص ٢٩٥.

فى ظل هذا الجدل ظهرت مفاهيم ما بعد الحداثة لتهدم كل نظريات الحداثة معلنة سقوطها وإخفاقها فى تحقيق أهدافها ، ومعلنة ظهور اتجاهات ما بعد الحداثة وأقول اتجاهات لأنها لم تصل بعد إلى مرحلة النظريات، خاصة وأن من أهم مبادىء ما بعد الحداثة الثورة على النظريات والأنماط المحددة.

ما بعد الحداثة:

«جاءت مفاهيم ما بعد الحداثة فى الفن لتتضمن مفهوم المزاوجة بين الطرز المختلفة»(١).

ويقول جينكس عن مضامين ما بعد الحداثة: « تتضمن العلاقة المركبة بين الماضى وإعادة تفسير التراث، والمزج بين الطرز المختلفة، وتقوم على استخدام المفارقة الساخرة والغموض والتناقض والهارمونية الغير متجانسة وتعدد الدلالات الرمزية»(٢).

تهتم ما بعد الحداثة بالذاتية الإنسانية وتمجيدها للفردية وإشباع الرغبات الذاتية، وفى الفن لا تعترف بفردية التراث وتميزه وتعبيره عن مضامين حضارية وفلسفية وجمالية بل تجعل أهم أهدافها تشويه التراث بإضافة عناصر غير متجانسة أو متوافقة إلى النماذج الفنية بشكل مشوه ساخر، فمبدأ العبث ينعكس فى كل عمل فنى لا يحمل مضمون سوى التشويه والتخريب والقبح ، كما أن فن ما بعد الحداثة لا يحمل قيماً جمالية ولا أخلاقية.

العولمة الثقافية:

«يقصد بالعولمة الثقافية خلق ثقافة عالمية، وفرض أذواق واحدة وعن طريق سوق استهلاكية عالمية ليس لها سابقة تغير من العادات المحلية وهنا تثار مخاوف عن تهديد هذه الثقافة العالمية للخصوصيات الثقافية، ومن بينها الخصوصية الثقافية العربية ومن هنا تأتى أهمية تأكيد الثقة بالذات فى مجال التفاعل مع تجليات العولمة »(٣).

---

(١)مارجريت روز: ما بعد الحداثة، ترجمة أحمد الشامى، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب،١٩٩٤، ص ٥٦

(٢) H. Jenks: The Language of Postmodern Archetecture , London, 1977, P. 18.

(٣) السيد يس: المرجع السابق، ص ٣١٣.

«إن العولمة الثقافية تعنى السيطرة الثقافية الغربية على سائر الثقافات بواسطة استثمار مكتسبات العلوم الثقافية فى ميدان الاتصال وهى التتويج التاريخى لعمليات السيطرة منذ انطلاق عمليات الغزو الاستعمارى منذ قرون، وحققت نجاحات من إلحاق التصفية والمسخ بثقافات جنوبية متعددة خاصة فى إفريقيا وأمريكا الشمالية والوسطى والجنوبية»(١).

وليس صحيحاً أن العولمة الثقافية هى الانتقال من حقبة ظاهرة الثقافات الوطنية والقومية إلى ثقافة عليا جديدة هى الثقافة العالمية أو الكونية كما يدعى مروجو فكرة العولمة الثقافية ، بل إنها فعل اغتصاب ثقافى وعدوان رمزى على سائر الثقافات فيهدد سائر الثقافات التى تبلغها عملية العولمة»(٢).

العنف الثقافى: " ينطوى على الإنكار والإقصاء لثقافة الغير وعلى الاستعلاء والمركزية الذاتية فى رؤية ثقافته، ويرادف ذلك الإكراه والعدوان »(٣).

ومن هنا تصبح الثقافة العربية عامة وثقافة الطفل العربى خاصة فى معترك حقيقى تصدر من خلاله المفاهيم تحت مسميات براقة توحى بالتجديد والتحديث، والعالمية والتقدم الموهوم.

وعلى ذلك تصبح الثقافة فى ظل العولمة وتداعياتها من تيارات الحداثة وما بعد الحداثة، والمادية والعبثية التى تهدم كل قيم الجمال وتهدم التراث وتلغى الانتماءات الثقافية لحساب استعمار المصالح الذى يقوم أساساً على الإلحاد ونفى كل ما هو مقدس واستبعاد كلمة الإيمان من قاموس مصطلحات ما بعد الحداثة.

يقول المفكر الفرنسى آلان تورين: «فمنذ أن فصمت الحداثة عرى وحدة العالم القديم، العقلانى والمقدس فى آن معاً لقد كلفت العقل باكتشاف قوانين العالم، وكلفت الوعى بإظهار ذات لم تعد إلهية ولكن إنسانية، ثنائية الحداثة بعد أن تداعت أصبح ينبغى الاستماع لصوت الذات والذى لا يكون استبطاناً بل كفاح من أجل

---

(١)مصطفى دسوقى كسبة: العولمة الثقافية وأثرها على التنشئة الاجتماعية، مجلة الوعى الإسلامى، العدد ٣٩٨، شوال ١٤١٩ هـ _ يناير ١٩٩٩، ص ٥١.

(٢) مصطفى دسوقى كسبة: المرجع السابق، ص ٥٤.

(٣) عبد الإله بلقزيز:العولمة والهوية الثقافية، مجلة المستقبل العربى،العدد ٢٢٩، مارس ١٩٩٨،ص٩٨ .

الحرية ضد منطق السلعة والسلطة، هذه الذات هى إرادة الفرد والجماعة فى أن يكونا صانعى حياتيهما، وهى أيضاً ذاكرة وانتماء»[1].

هذه باختصار شديد هى الخلفية الفكرية لصيحات الحداثة التى يرفضها العالم الآن، وما بعد الحداثة التى تبهرنا كمصطلحات جذابة ظاهرها يوحى بالجدة والتجديد وباطنها يهدم المبادىء وتخفى بين ظلالها قتالها ضد الدين ويصبح الإنسان ورغباته وفرديته الذاتية هما مقياس كل شىء، يقول الآن تورين: " يؤدى تمزق المقدس إلى تحطيم النظام الدينى وكذلك كل أشكال النظام الاجتماعى حيث حددت الروح الحديثة نفسها بقتالها ضد الدين»[2].

وتصبح هذه الاتجاهات هى الاتجاهات السائدة عالمياً والتى تصدر إلينا وغلى مجتمعاتنا تحت مسميات لا يهتم البعض منا بالبحث فى مضامينها فى ظل غياب الوعى بها للوصول إلى أصولها وخلفياتها الفكرية المسمومة ، وتحليلها تحليلاً ناقداً قبل استيرادها واستيعابها لتحل محل ثقافة أصيلة نابعة من الجذور، ثقافة إيمانية إذا عملنا بها أصلحنا الدنيا والآخرة.

وفى ظل هذا المناخ العالمى السائد وفى ظل ثقافة ما بعد الحداثة المهيمنة والسائدة مع سيادة العولمة كاتجاه اقتصادى استعمارى أولاً ثم فكرى ثقافى بعد ذلك والمصدر إلينا من خلال وسائل الإعلام والاتصال الحديثة والمنبث فى كارتون الأطفال وألعاب الكمبيوتر الموجهة للطفل العربى الذى لا يجد على الساحة العربية ما يحل محلها اللهم إلا أقل القليل. فى ظل كل هذا يجب علينا التشبث بأصولنا الدينية لحماية ذاتيتنا الثقافية وهويتنا الحضارية.

يقول عفيف بهنسى: « عند البحث عن الذاتية الثقافية لأمة من الأمم فإن الهدف لن يكون فلسفياً مجرداً، بل هو هدف حضارى لذلك تتسابق المؤسسات الثقافية والمنظمات العالمية والحركات القومية لتوضيح معالم الذاتيات الثقافية لأن الحضارة الإنسانية تنمو وتزدهر تبعاً لازدهار أشكال الثقافات القومية»[3].

(١) آلان تورين: نقد الحداثة، ترجمة أنور مغيث، المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٧.

(٢) آلان تورين: المرجع السابق، ص ٢٨١.

(٣)عفيف بهنسى: العمران الثقافى بين التراث والقومية، دار الكتاب العربى، القاهرة، ط ١، ١٩٩٧، ص٤ .

إن تثقيف الطفل العربى جمالياً يعتبر أول خطوة على طريق تأصيل الهوية والانتماء وهو يعتبر أمانة علمية ثقافية وواجباً حضارياً فنحن الآن فى أشد الاحتياج لتجذير التراث فى أرض المعاصرة ولا يعنى ذلك نقل التراث واستنساخه.. ولكن استلهامه وإعادة بناءه باعتباره الأرض الخصبة والمكون الرئيسى لثقافة الطفل العربى وتجديد لغة التراث الفنية بما يتلاءم مع مقومات المعاصرة، وتطويره ونموه داخل سياقه الذاتى، وعدم الوعى بذلك يجعل النهضة توئد فى مهدها، أو ترتدى ثياباً مغتربة عن أصولها ، فمن الأمانة الحضارية إيقاظ الوعى بالثقافة الجمالية لدى الطفل لتأصيل الانتماء الثقافى لديه، ويصبح ذلك بمثابة استنشاق العمق الروحى لتراثنا هذا العمق، المفتقد فى الفن الغربى الوافد الذى يحمل مضامين العدمية التى جاءت بها نزعات ما بعد الحداثة _ وأنه لا قيمة ولا مبدأ فكل شىء نسبى _ ونزعات نهاية العالم ونهاية التاريخ والانتصار الأبدى للرأسمالية الأمريكية الذى جاء به فوكوياما كل ذلك يصدَّر إلينا معبراً عنه من خلال الفن وموجات ما بعد الحداثة التى تؤصل النزعة نحو العدمية وانهيار كل ما هو ثابت ويقينى والمتأصل فى فنون التراث القومى وإحياءه من جديد فى طور المعاصرة.

بينما القيم ما زالت موجودة عندنا ولها وزنها وقيمتها وللحياة معنى ولا معنى للعدم فى فكرنا المعاصر ولا نهاية للتاريخ فالتاريخ متجدد دائماً ومتنوع دائماً طالما هناك أناس على وجه الأرض ، فالإنسان هو الذى يصنع التاريخ كما يقول « ابن خلدون»، وبرغم القهر والضغط والتبعية والمرارة وامتهان الكرامة الذى ينطبع فى قلوبنا عندما نرى بشائر تجليات العولمة الثقافية فى نظرية هنتنجتون وحتمية صراع الحضارات فيما يحدث فى فلسطين والعراق والسودان وأفغانستان والشيشان والبوسنة وأوزبكستان وتطبيقاتها العملية فى الواقع الفعلى والحرب الصليبية الجديدة التى أعلنها بوش، وكل الأمور محددة مسبقاً فقد حدد الغرب عدوه فى القرن القادم وهو الإسلام خاصة بعد انهيار الاتحاد السوفيتى وانتهاء الحرب الباردة وينعكس ذلك فى الإعلام الإرهابى الغربى الموجه بصورة شرسة والذى يصدر إلينا وإلى أطفالنا من خلال أفلام الكارتون والكاريكاتير وإلى شبابنا فى الغرف المغلقة عن طريق الإنترنت

وإننا باستكانتنا المخجلة وفى ظل غياب وسائل الإعلام العربية التى تصحح الأوضاع، نحن نحكم بالفناء على أصولنا الحضارية التى يقوم بتشويهها الغرب ويصدرها إلينا وإلى شبابنا الذى أوحينا إليه بأن التبعية للغرب هى سبيل النهضة وتقليد الفن الغربى هو قمة الإبداع مما يقضى على أى أمل لنا فى البقاء والمواجهة الحضارية.

وإذا كنا لسنا من الشرق (روسيا) ولا من الغرب (أمريكا) فمن نحن إذن؟ لقد بدأ البحث عن هذا الخيار يقطع خطواته فى مراحل كل مرحلة تسلم إلى الأخرى فى خطوات تصاعدية وأن مرحلة فعلية قد بدأت فى الظهور، حقا هى فى أول الطريق ولكنها أبداً لن تعود إلى الوراء»[1].

إن هيمنة الثقافة الغربية على الثقافات المحلية فيما يعرف بمصطلح (أيديولوجية التبعية) من شأنه تفكيك أواصر الانتماء القومى لدى الطفل العربى.

كذلك استيراد النظريات الفنية الجمالية الغربية مما يعزز التبعية للغرب، خاصة مع إغفال التراث الفنى القومى وعدم الاهتمام به وإتاحة مساحة عريضة لاستلهامه فنياً بالرغم من أن أحد أهداف التربية الفنية ينص على (الاهتمام بالتراث والمحافظة عليه ونقله وتطويره).

وتثقيف الطفل العربى جمالياً هدف هام يجب الانتباه له خاصة الآن أثناء الانفتاح الكبير على الغرب، وفرض وهيمنة قيمه الحضارية فيما يطلق عليه (العولمة) حيث يتخذ الآخر كنموذج عالمى للقيم، ومنذ أن أصبح الغرب نموذجاً للتقدم، وأصبح الاعتقاد الخاطىء بأن التقدم هو بمثابة الانفتاح على هذا الغرب، واستعاره أنماطه الثقافية، صار من الضرورات الملحة النظر فى مقومات التقدم الحضارى الخاص، بهدف البحث عن الذاتية الثقافية فى مقابل التغريب، والأصالة فى مقابل التبعية، والتواصل الحضارى المزدهر فى مقابل التجاهل والانفصال، فليس الغرب هو نموذج التحضر والتقدم وليس الشرق هو المتخلف والإرهابى كما قال بيرلسكونى

(١)عبد الرحيم إبراهيم: الوسطية وحوار الحضارات، بحث منشور ضمن مؤتمر العولمة والهوية الثقافية، المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٨، ص ١٧٢، ١٧٣.

الوزير الإيطالى الذى يحاكم حالياً بتهمة الفساد ولكننا (خير أمة أخرجت للناس) بشرط أن نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر ونؤمن بالله ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾. (١)

وليست العولمة الثقافية وما بعد الحداثة هى السبيل إلى النهضة وتأكيد الهوية لدى الطفل العربى وإنما سبيل النهضة هو اتخاذ الإطار الثقافى الخاص والمحلى كقاعدة ومرجعية ننطلق منها إلى العالمية من خلال استيعاب المتغيرات التكنولوجية المعاصرة.

والتحدى الراهن هو فك أغلال الفكر العربى والثقافة العربية وانطلاقها من أسر التحدى وهو معرفة مكونات أصول الفكر الجمالى فى التراث وجعله منطلقا وليس مرجعاً نستكين عنده ونطمئن، ومعرفة مكونات الحاضر المعاصر الثقافية وعمل مزج ثقافى ابتكارى إبداعى معاصر مكون من التراث الجمالى والمعاصرة، فالتراث أُنتج تعبيراً عن متطلبات عصر معين فلا يجوز تعميمه فى الواقع المعاصر، ولكن يجوز الاستفادة من بعض جوانبه الفكرية والفنية وجعلها أحد مكونات المعاصرة من خلال استلهامها المعاصر وإلا أصبحت هيمنة التراث بدلاً من هيمنة العولمة الثقافية، وفى نفس الوقت لا يعنى تأكيد الهوية من خلال التأصيل للذاتية الثقافية لفظ معطيات العصر التكنولوجية ولكن الاهتمام بها وجعلها أساس النهضة، بينما ما يحدث الآن هو استيراد وتقليد الثقافة وأنماط السلوك ولفظ العلم والتكنولوجيا الحديثة التى لابد أن يتم الأخذ بها وتبسيطها للطفل منذ المراحل التعليمية الأولى باعتبارها المرتكز الأساسى للنهضة ولكن من خلال الذاتية الثقافية والتراث.

إن التربية الفنية المعاصرة داخل إطار التعليم تهتم بالتراث الحضارى والفنون بأنواعها كأحد المحاور الهامة التى تلعب دوراً فعالاً فى تربية الطفل وتعليمه وتمثل طاقة إبداعية خلاقة فى مناهج الدراسة فى المدارس حيث يعد ذلك بمثابة لغة للتواصل بيننا وبين ماضينا المزدهر الذى يحمل بين طياته السمات الجوهرية والجينات الأصيلة لبناء حضارة معاصرة ذات أصالة موغلة فى القدم فى محاولة لتأكيد الهوية الثقافية للطفل فقد آن الأوان لأن نكون أنفسنا لا مقلدين ولا مستوردين من خلال

---

(١) سورة آل عمران: الآية (١١٠).

تأصيل ذاتيتنا الثقافية بهدف إبعاد شبح التبعية الثقافية الذى يؤدى فى الغالب إلى محو الشخصية الفردية والحضارية المتميزة لدى الطفل العربى.

يؤكد أحمد هيكل وزير الثقافة السابق أن أساسيات النهضة لابد أن تنبع من تراثنا وذلك ببساطة لأنها تكمن بداخله فيقول: " إن مقومات نهضة الأمة العربية الإسلامية تكمن فى ثنايا تراثنا الخالد الذى يجب التمسك به وذلك لأن الحداثة نبت غربى لا يمت للبيئة العربية بصلة، وأن أخطر ما يهدد الوجود الإسلامى اليوم هو (العولمة) ذلك الشبح الذى يسعى تحطيم الثقافات والهويات من أجل ثقافة واحدة ذات بعد سياسى معروف لا يدعو إلى التحاور بقدر ما يؤكد سيادة الهيمنة والسيطرة والاغتصاب»[1].

وأول خطوة هى البحث عن مقومات النهضة داخل إطار التراث بكل أنواعه العلمى والفكرى والفنى حيث يمكن استخلاص رؤى جمالية صرفة تحمل بين طياتها الجينات الأصلية لبناء فن يسهم فى تأصيل الهوية الثقافية والانتماء لدى الطفل العربى ومعلمى الفنون من خلال الفنون المختلفة ومجالاتها فى التراث الفنى الإسلامى.

فالطفل يحتاج إلى من يساعده لاكتشاف موهبته والتعبير عنها بالوسائط المختلفة، كما يحتاج إلى توجيه إلى أهمية التعامل مع التراث وكيفية استلهامه، كذلك إلى أهمية عدم إهدار طاقته الفنية فى النقل المباشر السطحى للتراث، كذلك عدم النقل عن الفن الغربى المهيمن عالمياً الآن فالطفل العربى اليوم يرسم الميكى ماوس وبات مان ويرسم المنزل الإنجليزى فهو يرسم بيئة مغايرة تماماً لبيئته لأن ذلك يهدم طاقة الإبداع بداخله ويؤصل لتغريبه عن بيئته.

ومن المهم جداً وضع برنامج لكيفية رعاية الأطفال الموهوبين فنياً من خلال استلهام التراث ويشمل رعاية فنية عملية وثقافية فكرية لما يفتقده هذا الجانب من قصور فى العملية التعليمية.

---

(١) أحمد هيكل: الحداثة تجر أذيال الهزيمة بعد أن فشلت فى تقديم نفسها للمثقف العربى، مقال منشور فى مجلة الوعى الإسلامى، العدد ٤٤٢، جمادى الآخر ١٤٢٣هـ- سبتمبر ٢٠٠٢م، ص٤٢، ٤٣.

أصول تثقيف الطفل العربى جمالياً وارتباطها بأهداف التربية الفنية:

تهدف التربية الفنية إلى تثقيف الطفل جمالياً من خلال تنمية مجموعة من المهارات والاتجاهات المرتبطة بالفن والتربية الفنية، والتى تؤكد بناء الشخصية وتكاملها وما ينتج عن ذلك من تغير فى سلوك الطفل وثقافته.

وأهم هدف من أهداف التربية الفنية تنمية الذوق الجمالى لكل ما فى الكون من مشاهد خلقها الله سبحانه وتعالى، وما صنعته يد الإنسان من خلال الرؤية والاستلهام والإبداع وما ينتج عن ذلك من تغير فى سلوك الطفل من خلال تدريبه على رؤية الجمال والقيم الجمالية وترسبها فى وعى الطفل ووجدانه.

«وديننا الإسلامى الحنيف حثنا فى مواقف كثيرة على رؤية الجمال والمتعة به وممارسته فى سلوكنا لنكون أفضل الناس، وهناك آيات من القرآن الكريم تقرر أن الجمال أحد الأركان الرئيسية فيما أبدعه الله فى الكون بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ سورة الكهف: الآية ٧. ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ سورة الحجر: الآية ١٦ . ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ﴾ سورة الصافات: الآية ٦. وقال الله تعالى فى وصف الأنعام: ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ سورة النحل: الآية ٦ . ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ سورة لأعراف: الآية٣٢. ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ سورة الكهف: الآية ٤٦ . ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ سورة الأعراف: الآية٣١ وليست الزينة من ناحية الملبس فحسب، وإنما فى شتى أنواع السلوك التى تكون جميلة حين تصبح أخلاقية وخيرة»[1].

وقد ذكر الجمال فى آيات متعددة وفى مواقف مختلفة حتى أنه تجاوز الجمال من ناحية الشكل إلى الغوص فيه كأساس سلوكى فالصفح جميل، والصبر جميل، والهجر وإن لم يكن جميلاً ولكن يمكن أن يؤدى بجمال وعند تأمل الآيات فى الصفح ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ سورة الحجر: الآية ٨٥ ، وفى التسريح: (فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً) سورة الأحزاب: الآية٤٩، وفى الصبر:

(١)محمود البسيونى: الفن فى تربية الوجدان، مرجع سابق، ص ٢٥.

﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلاً﴾ سورة المعارج: الآية ٥. وفى الهجر: ﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ ما يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً ﴾ سورة المزمل: الآية ١٠ . فها هو ذا الجمال قد وسع فى آيات الله وعمم ليكون أسلوباً للسلوك الخير وهو فى الواقع أمل تهدف إليه التربية الفنية بمفهومها الإسلامى فمن مجال إدراك الجمال فى الأعمال الفنية التشكيلية بالممارسة، والنقد والمقارنة والثقافة، ينتقل الجمال إلى عادات حية تؤثر فى المسالك الأخرى الاجتماعية التى يقوم بها الفرد وحينئذ يمكن القول: إن سلوكه أصبح يتسم بالجمال»[١].

ومن أهداف التربية الفنية تنمية القدرة على الإبداع لدى الطفل ومن ثم تنمية قدرته على اكتشاف الجميل والجديد وتذوقه ، وعدم التكرار الآلى لأعماله الفنية، وذلك من خلال رؤيته للإبداع فى الطبيعة وشحذ خياله وتصوراته من خلالها، ورؤيته للأعمال الفنية المبدعة عبر التراث.

ويؤكد البسيونى أن العملية الإبداعية لا تأتى بشكل عشوائى كما أنها لا تتم بطريقة واعية من الفنان فيقول: «إن عملية الإبداع وراءها سر الخالق الأعظم ووراءها سر الكون وقد جاء فى نصوص متعددة من القرآن ما يشير إلى هذا المعنى ويؤكده فهناك آية تقول: ﴿وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٣) إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ سورة الكهف: الآيتان٢٣، ٢٤ ، فمشيئة الله هى التى تؤدى دورها حين يتحرك الإنسان إلى الأمام ويحاول مجابهة المستقبل ، أو يسعى إلى الإبداع. ولابد أن يشاء الله حتى يتم هذا الإبداع، ولا يمكن أن يدعى الإنسان أنه بإمكاناته وحدها يتم هذا الإبداع.. فنحن ثمرة من قدرة الخالق، بسره نفكر، وبه نبدع ومن خلال تفكيرنا وإبداعنا نتقرب درجات ضئيلة نحو فهم سر الكون وسر عظمته الذى يظل الإنسان يجاهد ما عاش لكى يكشف عنه»[٢]. إن إيصال تلك المفاهيم للطفل من خلال معلومة مبسطة أثناء ممارسة التعبير الفنى من شأنه تعميق قيم الإيمان بالله والاستعانة به فى كل عمل.

ومن ناحية أخرى فإن الإبداع هو مظهر من مظاهر رقى الحضارات وتقدمها فالأمم والحضارات التى ارتقت عبر التاريخ، قامت من خلال الإبداع فى شتى

(١)محمود البسيونى: الفن والتربية، مرجع سابق، ص ٢٧٣.

(٢) محمود البسيونى: الفن فى تربية الوجدان، مرجع سابق، ص ٩، ١.

المجالات، وتهتم التربية الفنية فى المقام الأول بتنمية قدرة المتعلم على الإبداع، كما تهتم أيضا بتشكيل العقلية الابتكارية التى لديها القدرة على رؤية الجديد وتكشفه واستنباطه من خلال ميدان الفن الخصب الذى يتيح الفرصة لنمو قدرات الطفل الابتكارية، ومن خلال إدراك العلاقات الجمالية فى الكون من حوله وفى التراث الفنى الإسلامى، وكيفية استلهامها، وتضمينها فى أعماله الفنية مستلهما بذلك القيم الجمالية والابتكارية العديدة المتضمنة فيما خلقه الله سبحانه وتعالى من إنسان وحيوان، ونبات، وظواهر كونية طبيعية لا يسع الطفل عند إدراكها إلا أن يقول تبارك الله أحسن الخالقين.

ويقول البسيونى: « إذا كان ذلك صحيحا فإنه يترتب عليه مسائل كبيرة فى منهاج التعليم، والذى أقل ما يوصف به حاليا أنه منهاج آلى لا يربط المخلوق بخالقه، فعندما يوضع التلميذ فى وضع المستقبل ، عليه أن يحفظ القواعد والحقائق ويرددها، ولا يسمح له أن يوظفها فى مجالات جديدة، أى لا يسمح له أن يبدع، فإنه سيظل فى بعد عن إدراك عظمة الخالق ، فمن خلال الإبداع وحده يقترب الإنسان من ربه. لذلك كلما تغيرت مناهج التعليم وطرق تدريسها بحيث تضع المتعلم دائماً فى وضع المبدع كلما تغيرت إنسانيته وتغيرت إيجابيته وكفاءته، وهذا الأمر يحتاج إلى انقلاب فى نظم التعليم، فالتنظيم الحالى الذى يقوم على التحصيل أى الاستقبال السلبى يحتاج إلى عملية أكثر من التحصيل ألا وهى التكيف بهذا التحصيل إلى ما هو أبعد.. إلى توظيفه فى مجالات مبدعة ترفع من قدرة الطفل وتحسن من حياته ومن فهمه»(١).

والأهداف فى التربية الإسلامية مصاغة صياغة سلوكية محددة. فالقرآن الكريم لم يقدم مبادىء نظرية بهدف البحث العقلى، وإنما جاء بتوجيهات قابلة للتحويل إلى سلوك واقعى محدد، ولذا قرن القرآن بين الإيمان والعمل، فالمشاعر الإنسانية التى ترتبط بمبدأ معين لابد وأن تلاحظ آثارها فى الحياة الواقعية، والمؤمن لا يصبح مؤمنا بحق إلا إذا كانت تصرفاته فى حياته العادية ترجمة صادقة للمبادىء والتوجيهات القرآنية(١).

(١) محمود البسيونى: المرجع السابق، ص ٩، ١.

(٢) عبد الرحمن صالح عبد الله: مرجع سابق، ص ٢٥.

وعلى سبيل المثال فالتربية الفنية تشجع العمل الجماعى كقيمة تربوية والتربية الفنية مجال خصب لتعليم القيم كالتعاون وإذكاء روح الجماعة من خلال الأعمال الفنية الجماعية التى تعمل على إتاحة الفرصة للمتعلم لإظهار مواهبه وإمكانياته الفنية فى إطار الأعمال الفنية التى يتدرب من خلالها على التعاون مع أقرانه فى المدرسة على إنتاج الأعمال التى لا يمكن لفرد واحد أن يقوم بإنتاجها كتصوير جدارى على مساحة كبيرة مثلاً.

والدعوة إلى الجماعة واردة فى نصوص كثيرة من القرآن كقوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾ سورة آل عمران: الآية ١٠٣ . وقوله جل شأنه: ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ سورة آل عمران: الآية ١٠٣ .

والتربية الفنية كذلك تسهم فى إعلاء العديد من القيم والاتجاهات التربوية (كالإتقان) «حيث تعلم التربية الفنية الطفل أهمية إتقان العمل الفنى، واستكماله كما يؤكد الإسلام أهمية إتقان كل شىء ويقول جل شأنه: ﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ سورة الكهف: الآية ٣٠ وإحسان العمل.. إجادته والوصول به إلى درجة المهارة والكمال والإتقان ».

والإسلام لم يحث المسلم على العمل فقط.. بل إلى تحسينه وتجويده وإتقانه لأن الله مطلع على كل ما يفعل يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ سورة الكهف: الآية ٣٠ . ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ سورة الكهف: الآية ٧ . ويتكرر نفس المعنى فى القرآن الكريم فى موضع آخر: (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) وقد حفل القرآن الكريم بالعديد من الآيات التى تؤكد إحسان العمل والقيام به على أحسن وجه "ولذلك فليس بغريب أن يكون التأكيد على الإتقان إتقان الدرس، وإتقان المهارة فى كل عمل يتعهده الفرد ضرورة تربوية»[1].

(١)محمد فاضل الجمالى: نحو تربية مؤمنة وفلسفة تربوية متكاملة لتحقيق مجتمع إسلامى ناهض، تونس، الشركة التونسية للتوزيع، ١٩٧٧، ص ٨٢.

ومن ناحية أخرى فالتربية الفنية تؤكد قيمة الانتماء للبيئة كقيمة تربوية هامة حيث يتعرف الطفل على البيئة سواء أكانت ساحلية أم ريفية أم صحراوية، كما تؤكد كذلك على معرفة الأطفال بخامات كل بيئة واستخدامها وصياغتها فى إنتاج أعمالهم الفنية.

«وحينما تؤكد التربية الفنية هذا الانتماء للبيئة، وتدعمه كمدخل قومى لممارسة الفن فإنها تتفق مع ما ينشره الدين من ربط الإنسان ببيئته وإحساسه بالانتماء لأمة الإسلام التى لها آثارها الفنية من مساجد وقصور وفنون من مختلف الخامات الناتجة عن البيئة، وطبيعى إن تدريب كل مسلم على فهم تراث بيئته الإسلامى وترجمته فنياً، والمتعة به، وإدراك المقومات التى أسهمت فى بناء هذا الطراز المتميز عبر العصور فى كل قطر يدين بالإسلام، إن ذلك ما هو إلا انتماء على نطاق واسع فالمئذنة فى كل مكان رمز لكل مسلم يذكره دائما بأداء الصلاة، فالفن الذى أنشأ العمارة الإسلامية وفروعها، كان رابطاً لكل المنتمين لأمة الإسلام رباطاً ملموساً يشع المعانى الفنية، ويشع المعانى التى تتضمنها الآيات القرآنية التى تزخرف المساجد، والصور، والأوانى، والمخطوطات، بيئة غنية بخاماتها وموضوعاتها وآثارها وتقاليدها الفنية»[1].

الإطار العملى التجريبى (تجربة البحث):

برنامج مقترح لتطبيقه فى مجال التثقيف الجمالى للطفل العربى:

وقد تم تصميم وتطبيق البرنامج من خلال ثلاثة محاور أساسية:

١. تثقيف بصرى جمالى عن طريق شحذ الرؤية البصرية للأطفال من خلال التذوق البصرى للآثار الإسلامية فى البيئة الخاصة بها.

٢. تثقيف فكرى وعلمى من خلال تقديم معلومة مبسطة للطفل عن الفنون الإسلامية وبعض القيم الجمالية المتضمنة فيها كالجمال والجلال ، كالوحدة والتنوع، التجريد، التكرار الإيقاعى، المركزية، علاقة الجزء بالكل، وكيفية تحقيق ذلك فى عمل فنى أو لوحة تعبيرية أو كتب تلوين أو طباعة تى شيرت.

---

(١) محمود البسيونى: الفن والتربية، مرجع سابق، ص ص ٢٨٠ _ ٢٨١.

٣. مرحلة التعبير الفنى للأطفال عما رأوه ثم تصنيف تلك الأعمال واختيار وانتقاء بعض الأعمال من كل مجموعة تصلح للتلوين بحيث يشترك كل طفل بتصميم له، وتجمع التصميمات لعمل كتيب تلوين يتم طبعه وتوزيعه على المجموعات الأخرى، ويمكن إهداءه لأصدقائه فى الفصل، حيث يتعلم الطفل عمل قام بتصميمه بنفسه، ويستخدمه فى وقت فراغه.

ويتم التثقيف الجمالى البصرى عن طريق تدريب الأطفال على الرؤية البصرية من خلال تقديم مادة جمالية واقعية ملموسة فى الواقع من حوله وذلك عن طريق زيارات ميدانية فى صورة رحلات إلى المعالم الأثرية الإسلامية فى القاهرة كمسجد السلطان حسن ـ مسجد الرفاعى ـ مسجد محمد على بالقلعة ـ مسجد قايتباى وذلك بهدف تكوين خبرة بصرية تعتمد على الملاحظة ورؤية الأثر بضخامته وعظمته ولفت نظر الأطفال إلى دلالات (الجلال) من خلال الشموخ والرقى والعظمة والإبهار، مثال ذلك مسجد السلطان حسن من حيث الحجم والارتفاع الشاهق مع تبسيط المعنى للأطفال وربط ذلك بالحضارة الإسلامية التى أبدع من خلالها هذا المسجد كمثال والربط بينه وبين الهرم الأكبر كمثل للحضارة المصرية القديمة.

ويهدف ذلك إلى معايشة الأثر فى بيئته الطبيعية والالتفاف حوله ثم الدخول إلى المدخل الشاهق ومظاهر الجمال المتمثلة فى التصميمات الدقيقة والأطباق النجمية والكتابات القرآنية بالخطوط الكوفية المورقة والمزهرة، والتصميمات الهندسية والنباتية وكيفية تداخلها فى تصميم واحد وأن هذه التصميمات نجدها فى باطن القبة من الداخل وعلى الأبواب وعلى جوانب المنابر وعلى الأرضيات الرخامية.

ومن شأن ذلك إثارة الإدراك البصرى بالتضاد والتنوع لدى الطفل من خلال النظرة الكلية للبناء ككل (كوحدة جمالية قائمة بذاتها) ثم إثارة الإدراك البصرى بالتفاصيل الفنية المتنوعة (حيث تتجلى الوحدة من خلال التنوع) كقيمة جمالية ثم يتم تبسيط المعنى الجمالى للطفل يعنى إيه تنوع يا أولاد؟ يعنى اختلاف.. شوفوا شكل الدائرة على الرخام مختلف عن شكل الدائرة على الخشب ده (التنوع) لكن كل الأشكال بتمثل الدائرة دى (الوحدة).

شوفوا مثلاً شكل الجامع بيمثل وحدة لكن جامع السلطان حسن مختلف عن جامع عمرو بن العاص ومختلف عن الجامع الأزهر ، مختلف عن جوامع الهند وجوامع إيران وجوامع الأندلس والمغرب ده اسمه (التنوع). هل نقدر نعبر عن الكلام ده من خلال رؤية كل واحد فينا ؟ ومن خلال رسومنا كلنا هنرسم مسجد السلطان حسن لكن كل رسم هيطلع مختلف عن التانى (التنوع).

يقول روجيه جارودى: " إن نظرة عابرة على الفنون الإسلامية فى العالم تكشف عن وحدته وأصالته فقد كان يتنابنى دائماً إحساس بأن الفن الإسلامى من الجامع الكبير فى قرطبة إلى فسيفساء المساجد فى تلمسان، وجامع القرويين فى فاس، وجامع ابن طولون فى القاهرة، ومساجد أسطنبول العملاقة، والقباب البصلية فى مساجد أصفهان الساحرة كجنات الفردوس أو المئذنة القائمة الحلزونية فى سامراء، ومن ضريح تيمورلنك إلى قبر تاج محل فى الهند ومن قصور الحمراء فى غرناطة بالأندلس إلى شيهيل سوطون فى أصفهان... قد بناه نفس الإنسان تلبية لنداء الإله الواحد، ففى الفن الإسلامى كل الفنون تفضى إلى المسجد والمسجد إلى الصلاة»[1]. وإدراك الوحدة فى التنوع والتنوع فى الوحدة مما يؤدى إلى تعميق مشاعر الطفل العربى الإيجابية نحو ثقافته وإدراكه أن الإسلام ليس مرادفاً للإرهاب ولكنه دين الاستيعاب الحضارى لكل تنوع واختلاف، وذلك بهدف تأكيد انتماءه وهويته وتعميق مشاعره نحو ثقافته، وعدم زعزعة ثقته بذاته الحضارية الأصيلة.

كما يتم نقل تلك النماذج العالمية من الفنون والعمارة الإسلامية والموجودة فى جميع أنحاء العالم عن طريق جهاز عرض الشرائح من خلال عرض صور طبيعية لهذه النماذج الإبداعية فى العالم.

وذلك بهدف ربط نماذج الفن الإسلامى المحلية بالنماذج العالمية وتبيان المفاهيم الجمالية كالتكرار الإيقاعى ـ التجريد ـ المركزية ـ اللانهائية ـ الوحدة والتنوع وتطبيقها على هذه النماذج كمفاهيم جمالية يمكن للطفل أن يضمنها أعماله الفنية

(١) روجيه جارودى: وعود الإسلام، ترجمة ذوقان قرقوط، القاهرة، مكتبة مدبولى، ١٤١٣ هـ- ١٩٩٣ م، ص ١٣٠ .

وتعبيره الفنى وإحداث تنوع وإيقاع بهـا ووحدة جماليـة فى نفس الوقت، مما يجعل ذلك مصدراً من مصادر المعرفة الجمالية البصرية.

مما يؤكد اعـتزاز الطفل بثقـافته الإسـلامية العالميـة وتجلياتها الجـمالية والحـضارية وكيف أن الإسـلام كدين وحضـارة وفن كان يمثل اتجاهاً عـالمياً وحضـاريا أسهم فى نهـضة أوروبا الحديـثة والمعاصـرة عندما أخـذت بعلوم وفنون العلمـاء المسلمين فى العصور الـوسطى المظلمة فى أوروبا قديماً والمزدهرة فى الإسلام، وكـيف أن الإسلام هو دين الجمال والفـن والحضارة والعلم وليس الإرهاب كما يـوصمونه الآن فى كل مناسبـة، والتأكيـد على أن ذلك كذب وافتـراء وبهتان وزور وتشـويه لحضارة عـالمية متـسعة أضـاءت العالم بالعلوم والفنون ولم يضاهـا حتى الآن أى حضـارة أخرى، فالحضارة المصرية القديمة نشأت فى وادى النيل ولم يصل تأثيرها إلا إلى بعض البقاع حولهـا، وحضارة بابل وآشـور لم يتعد مداها بلاد الـرافدين، كذلك حضـارة فارس وحضارة الصين..

وده بيـدل يا أولاد على أن الثقـافة الإسـلاميـة هى ثقافـة عالميـة تهدف للتـواصل والتوافق والحوار مع كل الأجناس والقوميات واللغات والألوان، ولا تهدف أبداً إلى الصراع أو الصدام بين الحضارات تشهد على ذلك الـنماذج الجمالية الإبداعية للفنون الإسلامية فى جميع أنحاء العالم رغم تنوع الثـقافات والهويات التى امتزجت بثقافة الإسلام، والـتى تفاعلت بدورها تفـاعلاً إيجـابياً واحـتضنت كل الـثقافـات العالمـية فنشأت الوحـدة القائمة على التوحـيد فى الثقافـة الإسلامية من خـلال التنوع القائم على الاختـلاف بين الأجناس واللغات والقـوميـات، وأن الوحدة والتنوع كـمدلول جمـالى نجدها منعكسة فى جـميع مجـالات الفن الإسلامى لأن الوحدة قـائمة على التوحيد لله الواحد والتنوع قائم على اختلاف البشر.

المراجع

١ - سورة البقرة: الآية (٣٠).

٢ - سورة البقرة: الآية (١٤٣).

٣ - سورة الحجرات: الآية (١٣).

٤ - سورة البقرة: الآية (١٩١).

٥ - عبد الرحمن بن خلدون: عبد الرحمن بن خلدون: **مقدمة ابن خلدون** .

٦ - مجمع اللغة العربية، **المعجم الوسيط**، الجزء الأول، القاهرة، ص ٩٨.

٧ - ابن منظور: **لسان العرب**، الجزء العاشر، مادة ثقف.

٨ - القاموس المحيط، الجزء الثالث، مادة ثقف.

٩ - نصر محمد عارف: **الحضارة. الثقافة. المدنية**، دراسة لسيرة المصطلح ودلالة المفهوم، المعهد العالمى للفكر الإسلامى - ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م، ص ٣١

١٠ - نصر محمد عارف، المرجع السابق، ص ٣٢.

١١ - حسن حنفى: الثقافة العربية بين العولمة والخصوصية، **المحيط الثقافى**، العدد ٨، يونيو ٢٠٠٤، ص ٤٢.

١٢ - Wiener, Philips: **Dictionary of the Ideas**, New York, Scribmer_s Sons 1973, P. 613.

١٣ - مهن زيادة: **معالم على تحديث الفكر العربى**، عالم المعرفة، الكويت، العدد رقم ١١٥، ١٩٨٧، ص٧

١٤ - E. Tylor: **Primitive Culture** , New York, Brentano_s , 1924, P. 1.

١٥ - هشام شرابى: **المجتمع التقليدى والحداثة**، مجلة الأزمنة، باريس، ١٩٩٦، ص ٩١

١٦ - محمد سبيلة: **الحداثة**، دفاتر فلسفية، دار طوبقال للنشر، الرباط، ١٩٩٦، ص ١٧٢

١٧ - السيد يس: **العالمية والعولمة**، دار نهضة مصر، ط ٢، فبراير ١ , , ٢، ص ٢٩٥.

١٨ - مارجريت روز: **ما بعد الحداثة**، ترجمة أحمد الشامى، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩٤، ص ٥٦

١٩ - H. Jenks: **The Language of Postmodern Archetecture** , London, 1977, P. 18.

٢٠ - السيد يس: المرجع السابق، ص ٣١٣.

٢١- مصطفى دسوقى كسبة: العولمة الثقافية وأثرها على التنشئة الاجتماعية، **مجلة الوعى الإسلامى**، العدد ٣٩٨، شوال ١٤١٩ هـ _ يناير ١٩٩٩، ص ٥١.
٢٢ - مصطفى دسوقى كسبة: المرجع السابق، ص ٥٤.
٢٣- عبد الإله بلقزيز:العولمة والهوية الثقافية، **مجلة المستقبل العربى**،العدد ٢٢٩، مارس ١٩٩٨، ص ٩٨.
٢٤ - آلان تورين: **نقد الحداثة**، ترجمة أنور مغيث، المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٧.
٢٥ - آلان تورين: المرجع السابق، ص ٢٨١.
٢٦ - عفيف بهنسى: **العمران الثقافى بين التراث والقومية**، دار الكتاب العربى، القاهرة، ط ١، ١٩٩٧، ص ٤٠ .
٢٧ - عبد الرحيم إبراهيم: الوسطية وحوار الحضارات، بحث منشور ضمن مؤتمر **العولمة والهوية الثقافية**، المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٨، ص ١٧٢، ١٧٣.
٢٨- سورة آل عمران: الآية (١١٠).
٢٩ - أحمد هيكل: الحداثة تجر أذيال الهزيمة بعد أن فشلت فى تقديم نفسها للمثقف العربى، مقال منشور فى مجلة **الوعى الإسلامى**، العدد ٤٤٢، جمادى الآخر ١٤٢٣هـ- سبتمبر ٢ , , ٢ م، ص٤٢، ٤٣.
٣٠- محمود البسيونى: **الفن فى تربية الوجدان**، مرجع سابق، ص ٢٥.
٣١- محمود البسيونى: **الفن والتربية**، مرجع سابق، ص , ٢٧٣
٣٢- محمود البسيونى: **الفن فى تربية الوجدان**، مرجع سابق، ص ٩ , ١.
٣٣- محمود البسيونى: المرجع السابق، ص ٩ , ١.
٣٤- عبد الرحمن صالح عبد الله: مرجع سابق، ص ٢٥.
٣٥- سورة الكهف: الآية (٣٠).
٣٦- سورة الكهف: الآية (٧).
٣٧- محمد فاضل الجمالى: **نحو تربية مؤمنة وفلسفة تربوية متكاملة لتحقيق مجتمع إسلامى ناهض**، تونس، الشركة التونسية للتوزيع، ١٩٧٧، ص ٨٢.
٣٨ - محمود البسيونى: **الفن والتربية**، مرجع سابق، ص ص ,٢٨ _ ٢٨١.
٣٩ - روجيه جارودى: **وعود الإسلام**، ترجمة ذوقان قرقوط، القاهرة، مكتبة مدبولى، ١٤١٣ هـ- ١٩٩٣ م، ص ١٣٠ .